



قبل بضعة سنين، نشرت صفحة "الحماية العسكرية للثورة السورية" مقالاً عن القائد الصيني والمفكر الاستراتيجي تسوتسو وكيف أنه أثناء عرض عسكري توقف ونزل عن جواده لأنه لاحظ أن أحد الجنود لم يعقد ربطه حذائه. متابعي الصفحة لم يفهموا لماذا ملك الصين يهتم بمسألة تبدو تافهة؟

أقول، إن لنا في السيرة النبوية لكفاية. قال ابن إسحاق (كما في سيرة ابن هشام 2661): حدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدحٌ (أي سهم مبrey) يعدل به القوم، فمر بسوار بن غزية - حليفبني عدي بن النجار- وهو مُستثنٍ (أي خارج) من الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: "استوا يا سوار"، فقال: يا رسول الله أوجعني...

لماذا يهتم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأمور الصغيرة؟ رجل برب قليلاً من الصف، مع أنهم بعد قليل سيركضون للمعركة ويختلطون مع المشركين بالقتال. والجواب أن الذين يهتمون بالتفاصيل الدقيقة، هم الأقدر على التخطيط الجيد المتقن بحيث يستدركون كل دقائق المخطط فلا تجد فيه عيباً.

والبدوي بطبيعته فوضوي، نظراً لطبيعة الباية المتقلبة بعيدة عن الاستقرار والترتيب. ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام بذل جهداً في تعليم الصحابة الترتيب والنظام في حياتهم اليومية. وكانت العبادات اليومية أكبر معين لها على ذلك. يقول الشيخ علي الطنطاوي: "لماذا يبطل الصوم إن أفتر الصائم قبل المغرب بخمس دقائق؟ أليس - والله أعلم - لتعليمي الدقة والضبط والوفاء بالوعد؟ من مقاصد العبادات في دينه، تعليم التنظيم والتصميم. لو لا ذلك ما جعل الله للصلوة "وقتاً" إذا تقدمت عنه دقيقة لم تصح الصلاة، ووقتاً إن نقصت منه دقيقة فسد الصيام، وحدّ للحج وقتاً أن لم يكن فيه بطل الحج".

الإسلام كله ترتيب وذوق ونظام، لأن هذا هو أساس الحضارة. إذ لا يمكن أن تقوم الحضارة على الفوضى والعشوائية. بل حتى الحرب، رغم أنها يمكن أن تحصل مع العشوائية، فإن المخططين للمعارك الفاصلة كلهم ممن يتقن الترتيب في الأمور الصغيرة.

وب قبل أن يعرض القارئ على هذا، أدعوه للاطلاع لكتاب "رتب سريرك" لمؤلفه وليام مكرافن الضابط بالقوات الخاصة بالبحرية الأمريكية. والذي ذكر به أن الجيش الأميركي يركز بتدريبه الأساسي على أن يرتب الجنود سريرهم بطريقة معينة أول ما يستيقظوا. ورغم ما يبدو هذا أنه شيء بسيط، لكن له تأثير فائق على انتظام الجنود وعلى نفسيتهم لاحقا. ويمكنك مشاهدة ترجمة لخطابه الشهير الذي ابتدأه بقوله: "إذا أردت تغيير العالم إبدأ بترتيب سريرك" هنا:

<https://www.facebook.com/Plaizr/videos/1735924993377182>

وفي الثورة السورية، لا أعلم أحدا من كل قيادات الثورة كان مهتما فعلا بالترتيب. ربما الاستثناء الوحيد -في حد علمي- هو الشيخ زهران علوش الذي كان لا يخرج إلا وقلمه في جيده، وبكامل أناقته، في أرض المعركة. حتى أنه وضع بنداً في النظام الداخلي لجيش الإسلام بمنع تطويل الشعر! أما في الثورة السورية السابقة فهناك أيمن الشربجي، قائد الطليعة المقاتلة في دمشق، حيث كان لا يرضى أن يخرج من بيته وهو تحت الحصار إلا ببنطال مكوي. وأخيراً أختم بمقولة الشهيد سيد قطب: الجاهلية المنظمة لا يهزها إلا إسلام منظم.

المصادر: